

الحلقة الرابعة
القَصَصُ الدِّينِيُّ
العَرَبُ فِي أَوْرَبَا

النَّصُورُ ابْنُ أَبِي كَثَّافٍ

عبد الحميد جودة السحار

رأى ابنُ أبى عامرٍ تغلُّلُ نفوذِ الصَّقَالِبَةِ فى
 القصرِ ، وخطرَهم الدَّاهِمُ ، فعزمَ على أن
 يستأصلَهم . كان فائقٌ وجُوذِرُ الخَصِيَّانِ رئيسَى
 حرسِ الحريمِ ، وصاحبَى نفوذِ كبيرٍ فى القصرِ ،
 وكانا زعيمَى الصَّقَالِبَةِ ، فلو أنَّه قضى عليهما ،
 لقضى على قُوَّةِ تُهدِّدُ سلطانه ، واستحواذَه على
 السُّلْطَةِ والسُّلْطَانِ .

وذهب فائقٌ إلى بَيَّاسَةٍ ، وقابلَ أميرَها دُرَى ،
 ليؤلِّبَه على الدَّوْلَةِ ، وعَلِمَ ابنُ أبى عامرٍ بذلك ،
 فذهبَ إلى المصحفَى رئيسِ الوزراءِ ، وراحَ يُحرِّضُه
 عليه ، ولكنَّ المصحفَى لم يستطعَ إعلانَ عداوتِه

للخصيين ، خشية ثورة الصقالبة ، بل راح يضيق
عليهما .

وتضايق فائق وجؤذر من وطأة المراقبة ، ولما كان
جؤذر يتمتع بنفوذ كبير في القصر ، وكان الخليفة
هشام لا يستغنى عنه ، فقد رأى الصقالبة أن يقدم
جؤذر استقالته ، فإذا رفض الخليفة قبولها ، وهذا
هو المتوقع ، فستأخ له الفرصة لإملاء شروطه .

وكتب جؤذر استقالته ، ورفعها إلى هشام ، وعلم
ابن أبي عامر بذلك فسر ، فقد جاءت الفرصة
للتخلص من الصقالبة . دخل على الأميرة صباح ، أم
الخليفة التي كانت سبب نعمته ، وأقنعها بقبول
الاستقالة ، فقبل الخليفة « هشام » الذي كان العوبة
في يد أمه وابن أبي عامر ، استقالة جؤذر ، فكان
ذلك إيذاناً بزوال سلطة الصقالبة في القصر .

تقدّمت رايات الفرنج ، وأوغلت في التّقدّم ،
 حتّى أصبحت ترى من حصون قرطبة ، وبعثت قلعة
 من القلاع تطلب من العاصمة العون ، فأرسل إليها
 المصحفيّ حاجب الدولة ، أن تقطع سدّ النهر ،
 لتحجز العدو عنها .

وعزم ابن أبي عامر أن يخرج للجهاد بنفسه ،
 وعقد مجلس الوزراء ، وقام ابن أبي عامر يقول
 بضرورة الجهاد ، فوافق الوزراء على ذلك ،
 وعرضت قيادة الجيوش على ابن أبي عامر ، فوافق
 على تقلّدها ، وقال :

- لا بأس ، على أن أختار من يخرج معي من

الرجال ، وأتجهز بمائة ألف دينار .

فصاح صائح : « هذا كثير » .

فقال ابن أبي عامر في تحدّ :

- خذ ضعفها وامض لها ، وليحسن غناؤك .

فسكت المعترض ، ولم ينبس بكلمة .

وتجهزت الجيوش ، وخرج ابن أبي عامر على

رأسها ، لقتال الإفرنج ، الذين أطمعهم في الأندلسيين

استينامتهم ، وتخاذل حكامهم ، وأشعل منظر الجند

الخارجين للجهاد نار الحماسة في الصدور ، فارتفعت

الهمتات ، وترقرقت الدموع في العيون .

وانطلق ابن أبي عامر ، وقد ثارت في عروقه دماء

أجداده الفرسان الصناديد ، الذين أبلوا أحسن

البلاء في فتح البلاد ، مع طارق بن زياد .

عادَ ابنُ أبي عامرٍ من غزوتِهِ مُنتَصِراً ، يسوقُ أمامَهُ
 الأسرى ، فخرَجَتْ قُرْطُبَةُ لاسِتِقْبَالِهِ ، فقد أعادَ نصرُهُ
 الثَّقةَ إلى النفوسِ ، وشَجَّعَهُ نصرُهُ أن يُفَكِّرَ في
 التَّخَلُّصِ مِنَ المُصْحَفِيِّ ، ولكن كان ذلك صعباً
 المُنالَ ، ما دامَ محمدُ المُصْحَفِيُّ يحكُمُ قُرْطُبَةَ ، وأبناؤُهُ
 وأصهارُهُ منشُؤونَ في المَناصِبِ الهامَّةِ . ففَرَّ قرارُهُ على
 أن يُقْلَمَ أَظْفَارَ المُصْحَفِيِّ ، قبلَ أن يضربَ ضَرْبَتَهُ .
 كان يعلمُ أن عابِئاً قائِداً الجيوشِ ، عدوُّ المُصْحَفِيِّ
 اللَّدودِ ، فراحَ يتقَرَّبُ من غالبِ ، وقد ساعَدَهُ
 خُروجُهُ للقتالِ على أن يكونَ بالقُربِ من غالبِ ،
 فصارَ تنفيِذُ ما يجولُ بفكرِهِ أمراً ميسوراً .

انتصر ابنُ أبي عامرٍ في غزواته الثانية ، ووقف
غالبٌ يودّعه في عودته ، ويقولُ له : سيظهرُ لك
بهذا الفتح اسمٌ عظيم ، وذكرٌ جليل ، وسيشغلهم
السُّرورُ به عن الخوضِ فيما تُحدثه من قصّة ، فأياك
أن تغادرَ قصرَ الخليفة ، حتى تعزلَ ابنَ جعفرٍ عن
المدينة ، وتتقلّدها دونه .

وفعلَ ابنُ أبي عامرٍ ما اتفقَ عليه مع غالب ، فقد
عزلَ الخليفةُ محمدَ بنَ المصحفى عن إمارةِ قرطبة ،
وولى إمارتها ابنَ أبي عامرٍ ، وكانَ للأميرةِ صُبح
الفضلُ في ذلك .

أهمَّ المصحفى عزلُ ابنه ، وفكّرَ في ابنِ أبى
عامرٍ ، فهالَه أمرُه ، وبدا له مُنافِسًا خطيرا ، ففكّرَ
في تدعيمِ مركزه ، بالتَّقرُّبِ من غالب ، وتكوينِ

جَبْهَةً قَوِيَّةً مِنْهُمَا . تَقِفُ فِي وَجْهِ أَطْمَاعِ ابْنِ أَبِي
عَامِرٍ . فَقَرَّرَ أَنْ يَخْطُبَ أَسْمَاءَ بِنْتَ غَالِبٍ ، لِابْنِهِ عُثْمَانَ .
وَاجْتَمَعَ الْمُصَحِّفِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ بِغَالِبٍ ، وَكُتِبَ الْعَقْدُ
وَحُدِّدَ يَوْمُ الزَّفَافِ ، وَعَلِمَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ بِذَلِكَ ،
فَتَيَقَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْمَصَاهِرَةَ لَوَقَّعَتْ ، لِتَعَذُّرِ عَلَيْهِ تَنْفِيذِ
مَآرِبِهِ ، فَكَتَبَ إِلَى غَالِبٍ يَعْرِضُ عَلَيْهِ فسخَ الْخِطْبَةِ ،
وَأَنْ يُزَوِّجَهُ مِنْ أَسْمَاءَ ، فَقَبِلَ غَالِبٌ ، وَلَمْ يَتَرَدَّدْ
لَحِظَةً ، وَكَانَتِ الصَّفْعَةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي وَجَّهَهَا ابْنُ أَبِي
عَامِرٍ إِلَى الْمُصَحِّفِيِّ .

٤

هَآنَ أَمْرُ الْمُصَحِّفِيِّ ، حَتَّى إِنَّ ابْنَ أَبِي عَامِرٍ نَجَحَ فِي
إِثَارَةِ الْأَمِيرَةِ صُبْحَ عَلَيْهِ ، حَتَّى صَدَرَ الْأَمْرُ بِإِقَالَةِ

جعفر المصحفي ، وبالقُبْضِ عليه وعلى أبنائه
وأصهاره . فبعث ابن أبي عامر بالجند إليهم ،
وأمرهم أن يحبسوا المصحفي في المطبق بالزَّهراء .

واستفحل أمر ابن أبي عامر ، فرأى أن يسلب
هشامًا السُّلْطَةَ ، وهو الخليفة الضَّعِيفُ المشغولُ عن
ملكه بعبادته ، فوكل بأبواب قصر الزَّهراء ، رجالا
من أنصاره ، يمنعون الوصولَ إلى الخليفة إلا بإذنه ،
وحصَّن القصرَ بسورٍ ضخَمٍ ، وحفرَ حوله خندقًا ،
فأصبح الوصولُ إلى الخليفة أمرًا عسيرًا .

وحنقت الأميرةُ صُبْح ، وزادَ في حنقِها أنها
أصبحت لا تستطيعُ أن تفعلَ شيئًا ، فانتصاراته على
الإفرنج حَبَّبتِ الشَّعبَ فيه ، وجعلت منه رجلاً
خطيرًا .

ورأت أنّها أساءت إلى ابنها يوم نَحَّته عن
الحكم ، وجعلته ينغمِرُ في عباداته ، فأرادت أن تمحو
أثر ذلك . فعزمت على أن تنفخ في ابنها روح
الثورة والتَّمرد على ابن أبي عامر ، ولكن هيهات !
فقد شبَّ هشامٌ خائراً ضعيفاً ، لا يقوى على
الصُّمودِ أمام الأقوياء .

٥

بدأ ابنُ أبي عامر بترتيب أمورِ الولاياتِ الإفريقيّة ،
وأدخل في الطّاعة جميعَ أهلها ، وجنّدَ منهم الجيوشَ
الجَرّارة ، واستنفرَ أهلَ الأندلس ، وراحَ يحضُّهم
على القتال ، ويَشْنُ الغاراتِ في الصَّيف ، فما كان
رجالُ إفريقيّة ، يتحمّلون بردَ الأصقاعِ الشّماليّة .
وبثَّ الغاراتِ في أطرافِ البلاد ، حتى أوقعَ

الذُّعْرَ فِيهَا جَمِيعًا ، وَعَادَتِ النَّصْرَانِيَّةُ عَلَى شِفَا خَطَرٍ عَظِيمٍ . فَقَدْ رَاحَتْ خِيُولُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ تَجْرُسُ أَمَاكِنَ لَمْ يَخْفُقْ فِيهَا عِلْمٌ إِسْلَامِيٌّ مِنْ قَبْلِ ، وَسَقَطَتْ مَدِينَةُ سَانتِ يَاقِبَ مِنْ جَلِيقِيَّةٍ ، وَهِيَ أَقْدَسُ مَعْهَدٍ مَسِيحِيٍّ فِي أَسْبَانِيَا ، فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ .

لَمْ يَطْمَعْ أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ فِي قَصْدِهَا ، وَلَا الْوَصُولِ إِلَيْهَا ، لَصُعُوبَةِ مَدْخَلِهَا وَخُشُونَةِ مَكَانِهَا ، وَبُعْدِ شَقَّتِهَا ، فَخَرَجَ الْمَنْصُورُ إِلَيْهَا مِنْ قَرْطَبَةِ غَازِيَا بِالصَّائِفَةِ ، سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ ، وَهِيَ غَزْوَتُهُ الثَّامِنَةُ وَالْأَرْبَعُونَ .

كَانَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ قَدْ أَنْشَأَ أُسْطُولًا كَبِيرًا بِسَاحِلِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ، جَهَّزَهُ بِرِجَالِهِ الْبَحْرِيِّينَ ، وَصُنُوفِ الْمُتَرَجِّلِينَ ، وَحَمَلَ فِيهِ الْأَقْوَاتَ وَالْأَطْعِمَةَ وَالْعُدَّةَ وَالْأَسْلِحَةَ . وَانْطَلَقَ الْأُسْطُولُ إِلَى نَهْرِ دُوبَرَةِ ،

فدخل في النهر ، وأراد المنصور أن يعبر إلى الأرض ، فجعل من الأسطول جسراً بقرب الحصن ، ووجه ابن أبي عامر ما كان فيه من الميرة إلى الجند ، وسار يريد سانت ياقب ، فقطع أرضاً واسعة ، وعبر عدة أنهار ، حتى إذا وصل إلى جبل شامخ ، شديد الوعورة ، لا مسلك فيه ولا طريق ، قدم الفعلة بالحديد ، لتوسعة شعبه وتسهيل مسالكه .

وعبر العسكرُ الجبل ، وانبط المسلمون في سهول عريضة ، وظلوا يتقدمون حتى انتهى العسكر إلى جبل مراسية ، المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط ، ثم نزل المسلمون على مدينة سانت ياقب ، فوجدوها خالية من أهلها ، فأخذوا غنائمها ، وهدموا مصانعها ، وأسوارها ، وأخذوا أجراس الكنيسة الكبرى ، وأجبر ابن أبي عامر الأسبان على

حملها على ظهورهم ، من سانت ياقب إلى قرطبة ،
مسافة ثمان مائة كيلومتر ، وقد صنع منها قناديل ،
عُلِّقَتْ بجامع قرطبة العظيم .

٦

تم لابن أبي عامر الاستقلال بالملك ، والاستبدادُ
بالأمر ، وبنى لنفسه مدينة الزاهرة ، ونقل إليها
خزائن الأموال والأسلحة ، وقعد على سرير الملك ،
وأمر أن يُحيّا بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب
المنصور ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامرُ
باسمه ، وأمر بالدُّعاء له على المنابر باسمه ، عقب
الدُّعاء للخليفة ؛ ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم
يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدُّعاء له

على المنابر ، وكتب اسمه في السكة ، وأغفل ديوانه
مما سوى ذلك .

وصار المنصور يسهرُ لتنام رعيته ، وفي ذات ليلة
دخل عليه مولاة ، بعد أن طال سهره وقال له :

- قد أفرط مولانا في السهر ، وبدنه يحتاج إلى
أكثر من هذا النوم ، وهو أعلم بما يحركه عدم النوم
من علة العصب .

فقال المنصور :

- الملك لا ينام إلا إذا نامت الرعية .

٧

كاذ الأمل ينقطع من بقاء النصرانية في إسبانيا ،
فقد غزا المنصور ستاً وخمسين غزوة ، لم تنكس له

فيها راية ، ولا انهزم له فيها جيش . ورأى ملوك
النصارى هذا الخطر الداهم ، فاتحد أصحاب ليون
ونابار وقشتالة ، وسائر المقاطعات المسيحية ، ونبذوا
كل ما كان بينهم من خلاف ، وساروا عصابة
واحدة . وتسليح الأساقفة والقسيسون ، وساروا في
مقدمة الجيوش ، واجتمعت جيوش جرارة من
المسيحيين ، على حدود قشتالة القديمة .

وجمع المنصور جيوشه ، وخرج يحمل أكفانه ، التي
كان يحملها معه كلما خرج للجهاد ، والصرة الكبيرة
التي جمعها الخدم مما علق بوجهه وثيابه من الغبار في
غزواته المظفرة ، التي نيفت على الخمسين .

والتقى الجيشان ، وسالت الدماء ، وانتصر
المنصور . ولكنه أحس المرض يدب في أوصاله ،
واشتد مرضه ، حتى لم يستطع أن يعتلي صهوة

جواده ، فصْنَعَ له سَرِيرٌ من خَشَبٍ ، رَقَدَ فيه ،
وَحْمِلَ على أَعْنَاقِ الرِّجَالِ .

وَقَفَلَ الجَيْشُ عَائِدًا يَبْغِي الوُصُولَ إلى قُرْطَبَة ،
ولكنَّ وَطْأَةَ المَرَضِ اشْتَدَّتْ على المَنصُورِ قَبْلَ أنْ
يَبْلُغَهَا ، فَأَنْزَلُوهُ مَدِينَةَ سَالِمٍ . وَفَكَّرَ في أَمْرِ قُرْطَبَة ،
فَأَهَمَّهُ أَمْرُهَا ، فَبَعَثَ إلى ابْنِهِ عَبْدِ المَلِكِ ، يَسْتَدْعِيهِ
وَيُوصِيهِ بِهَا .

وَدَخَلَ ابْنُهُ عَلَيْهِ ، وَارْتَمَى على صَدْرِهِ وَأَخَذَ
يَبْكِي ، فَقَالَ له المَنصُورُ في صَوْتٍ ضَعِيفٍ :
- هَذَا أَوَّلُ الإِخْفَاقِ .

وَمَاتَ المَنصُورُ ، فَأَقْبَلَتِ الفِتْنُ يَجْرُ بِعَظْمِهَا بَعْضًا .